التداولية؛ من المرجعيات الفلسفية إلى التداولية المعرفية

deliberative; From philosophical references to cognitive pragmatics

فاطمة عسول[1]، أد- حمزة حمادة[2]

[1] جامعة الوادي، (الجزائر)، assoul-fatma@univ-eloued.dz

[2] جامعة الوادي، (الجزائر)، Hamada-hamza@univ-eloued.dz

مخبر بحوث في الأدب الجزائري ونقده

تاريخ الإيداع: 2022/02/15 **تاريخ المراجعة**: 2022/04/13 **تاريخ النشر**: 2022/11/30

ملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى البحث عن كيفية تشكل المنهج التداولي، من حيث روافده الفلسفية ومرجعياته المعرفية التي عملت على إرساء قواعده اللغوية، وتأسيس أرضيته الإبستمولوجية، كما تهدف أيضا إلى الوقوف عند أهم المنطلقات التي أسهمت في تأسيسه ونشأته.

سنحاول من خلال مقالنا الموسوم ب التداولية؛ من المرجعيات الفلسفية إلى التداولية المعرفية، الإجابة على الإشكالية الآتية: ماهي المرجعيات والخلفيات الفلسفية التي كانت متكأ هذا المنهج أثناء سيرورة تشكله؟ فيم تمثلت أهم المحطات المعرفية التي ساهمت في تأسيسه؟ كيف تم الانتقال من التداولية إلى التداولية المعرفية؟ معتمدين في ذلك المنهج الوصفي باستخدام التحليل والتركيب كآليات إجرائية تمكننا من وصف ومعالجة الظاهرة المدروسة.

الكلمات المفتاحية: التداولية، المنهج، المرجعيات الفلسفية، اللغة، المعرفية.

Abstract

This study seeks to search for how the pragmatic approach was formed, in terms of its philosophical tributaries and cognitive references that worked to establish its linguistic rules, and establish its epistemological ground, and also aims to stand at the most important premises that contributed to its establishment and emergence.

We will try through our intervention tagged with deliberative; From philosophical references to cognitive pragmatics, the answer to the following problem: What are the philosophical references and backgrounds that supported this approach during the process of its formation? What were the most important knowledge stations that contributed to its establishment? How was the transition from deliberative to cognitive deliberative? Adopting in that descriptive approach, using analysis and synthesis as procedural mechanisms that enable us to describe and treat the studied phenomenon.

***Key words**: deliberative, curriculum, philosophical references, the language, Cognitive.*

* المؤلف المراسل.

تقديم:

إن البحث في تاريخ أي معرفة هو بحث في صلاتها الممكنة أو الموجودة بين ثنايا حقول معرفية أخرى، وقد أبان تاريخ العلوم أن المعاني والأفكار لا تولد من فراغ بل هي سلسلة تراكمات وامتدادات، وهذا حال الدرس التداولي، فقد كان ملتقى عدة تخصصات ونهل من معارف شتى: كالفلسفة التحليلية والسيميائيات والذرائعية ونظرية المعرفة، كل هذه المرجعيات كانت رافدا خصبا للمنهج التداولي، فالتداولية أو التداوليات أو البرغماتية أو الوظيفية أو السياقية تهتم بدراسة اللغة في دائرة الاستعمال وضمن سياقات تواصلية مختلفة، ويعد السياق من أهم المرتكزات التي يستند عليها هذا الحقل. ومنه وجب طرح جملة من الإشكاليات تمثلت في: ما التداولية؟ ما موضوعها؟ ماهي الخلفيات الفكرية والفلسفية التي اتكأ عليها هذا الصرح الأدبي؟ وكيف انتقل هذا المنهج من المنشأ الغربي إلى المحضن العربي؟

أولا/المفهومية النقدية التداولية:

حظيت التداولية بمفاهيم عدة كل حسب مرجعياته الفكرية ورؤاه المعرفية، إذ نجد أن أقدم تعريف لها مثله الناقد الغربي "موريس (morris)"سنة 1938 والذي يقول فيه أن: «التداولية جزء من السيمياء التي تعالج العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات، وهذا تعريف واسع تعدى المجال اللساني إلى (السيميائي)والمجال الإنساني إلى (الحيوان الآلي)».[1] فالتداولية هنا جمعت بين عرف السيمياء واللسانيات وكذلك المعارف الإنسانية لتحدث قفزتها المعرفية نحو نظام الحيوان الآلي الذي يعد ميزة جديدة لهذا المنهج.

كما عرفت التداولية بكونها «دراسة للغة بوصفها ظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية في نفس الوقت»[2]وهي أيضا «دراسة اللغة في الاستعمال أو الاستخدامlanguage in use؛ بمعنى دراسة اللغة في سياقاتها الواقعية لا في حدودها المعجمية أو تراكيبها النحوية. هي دراسة الكلمات والعبارات والجمل كما نستعملها ونفهمها ونقصد بها، في ظروف ومواقف معينة، لا كما نجدها في القواميس والمعاجم ولا كما تقترح كتب النحو التقليدية»[3]

من خلال جملة التعاريف المقدمة، نلاحظ أن التداولية تهتم بدراسة اللغة داخل دائرة الاستعمال ولا تكتفي بدراسة البنية اللغوية (المعجمية)، بل تُدخِل بعين الاعتبار مقاصد المتكلم والمقام التواصلي وأحوال السامعين، فهي تواصلية ومقامية وإبلاغيه، غايتها مثل غاية البلاغة لكن تجاوزها المعرفي المتمثل في الانتقال من البعد الإنساني للحيوان الآلي منحها طابعا براغماتيا أعمق.

ثانيا/التداولية وإشكالية ضبط المصطلح

المصطلحات مفاتيح العلوم، والتداولية كغيرها من المصطلحات التي أصابتها عدوى فوضى المصطلح، نتيجة تعدد الترجمات فأضحت التداولية تداوليات، فكل يترجم حسب ثقافته، فهناك من ينقل عن الفرنسية و هناك من يترجم عن الانجليزية، لهذا هناك مصطلحات تُرجمت وأخرى عُرّبت وهكذا، فوجدنا «عدة ترجمات لمصطلح التداولية منها: اللسانيات التداولية؛ التداولية اللسانية؛ التداولية؛ التداوليات؛ علم اللغة التداولي؛ علم

المقاصد و علم التخاطب»[4] . فالتداولية بهذه المصطلحات تارة تأخذ طابعا لسانيا محضا، وتارة تكسب صفة العلم، ومرة أخرى تُجمع على أنها المظلة التي تخفي وراءها عدة معارف تتعلق بالبعد التداولي. ومن جهة أخرى نجد مصطلح البراغماتية الذي توازت معه بالبعد اللساني وأكسبها سمة الوظيفية «فلقد أضحى من المسلم به في الدراسات اللسانية أنه لا يمكن الحديث عن علم الدلالة دون موازنته بما يسمى عند الغربيين بالبراغماتية pragmatics»[5] و من المصطلحات الأخرى التي ترجمت عن كلمة pragmatics«التخاطبية؛ السياقية؛ المقامية؛ المقاماتية؛ الوظائفية(مجال اللسانيات)؛ علم الذرائع؛ الذرعية؛ الذرائعية؛ الذريعيات؛ مذهب الذرائع؛ الفائذاتية؛ الفوائذية؛ الغائبة؛ النفعية والانتفاعية»[6]و من بين المصطلحات التي عربت أي نقل اللفظ كما هو نذكر «البراجماتية؛ البركماتية؛ البراغماتية؛ البراجماتيك؛ براغماطيقا؛ البراغماتكس والبرغماتزم »[7] .

كان هذا رصد لا نقول لجل، وإنما لبعض المصطلحات التي تعبر عن مفهوم واحد ألا وهو التداولية، أما الدارسين العرب فقد اختلفوا هم كذلك في تبنيهم لهذا المصطلح ووقعوا في مطب هذه الإشكالية فنجد مثلا «محمد عكاشة استخدم مصطلح البراغماتية اللسانية، محمد يونس اختار مصطلح علم التخاطب، طه عبد الرحمن فضل مصطلح التداوليات، محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي فضل لفظ علم المقاصد، أما مسعود صحراوي استعمل مصطلح علم الاستعمال اللغوي» [8] ويبقى هذا الاختيار من طرف النقاد راجعا لثقافتهم ومعارفهم وبيئتهم.

ثالثا/المحطات المعرفية للتداولية:

اتسم كل علم جديد بمراحل وأشواط معرفية مر بها خلال تشكله وتبلوره في الساحة الأدبية والنقدية، حيث «قطعت التداولية في تاريخها الممتد من خمسينيات القرن العشرين إلى حدود الأن تحولات كثيرة، فبعدما كانت تنعت قبل عقود بسلة المهملات أضحت حقلا معرفيا خصبا ومتجددا لا حدود تحده، ولا حواجز تمنعه من اقتحام حقول معرفية أخرى، وقد أوجزت آن ربول تاريخ التداولية في ثلاث محطات.»[9] اعتبرها النقاد جهودا يمكن رصدها في الآتي:

1/ جهود موريس:

الإشارة لجهود "موريس"، يعود بنا لحقل آخر وهو السيمياء، حيث كانت هذه الأخيرة جسرا لظهور التداولية

«فبداياتها تعود إلى 1938 حيث تحدث "شارل موريس" عن السيمزويس في أبعادها الثلاثة البعد التركيبي؛ البعد السيميائي الدلالي؛ وأخيرا البعد التداولي في هذه المرحلة ظلت التداولية حبيسة الإشارات واستقر في ذهن موريس أن التداولية تقتصر على دراسة ضمائر المتكلم والخطاب وظرفي المكان والزمان "الأن-هنا" والتعابير التي تستقى دلالاتها من معطيات تكون جزئيا خارج اللغة نفسها؛ أي من المقام الذي يجري فيه التواصل»[10]

إن موريس عدَ التداولية جزء من السيميائيات، نجد بورس قد حدد الإطار العام للسميائيات فميز بين ثلاثة فروع هذه الفروع نصل بها إلى علامة ثلاثية الأبعاد: البعد التركيبي (بعد الممثل) البعد الدلالي (بعد الموضوع)

البعد التداولي (بعد المؤول)، وهذه الأبعاد هي نفسها التي انطلق منها موريس تلميذ بورس فالعلامة البورسية تتألف من: الممثل؛ الموضوع والمؤول.

2/جهود أوستين:

جسدت مرحلة الخمسينيات فترة حاسمة في صياغة معالم التداولية، «خاصة مع سلسلة المحاضرات التي ألقاها أوستين سنة 1955 بجامعة هارفرد حول فلسفة وليام جيمس حيث بلور في هذه المرحلة مبحثا محوريا تناقلته الدراسات التداولية اللاحقة، خاصة سورل مداره حول أفعال الكلام، أبان أوستين من خلاله أن عدد هائلا من الجمل الخبرية التي تستعمل لا تتعيا وصف العالم، وإنما تغييره أي أنها جمل عملية»[11] كان لجون أوستين الفضل في تأسيس أهم نظرية مشكلة للجهاز المفاهيمي التداولي وهي نظرية الأفعال الكلامية، حيث قدم مفاهيم دقيقة لهذه النظرية، وخصائصها وأبعادها الإنجازية .

3/ جهود غرايس:

علاوة على محاضرات أوستين كانت جهود بول غرايس هي الأخرى مؤثرة وحاسمة في المبحث التداولي «حيث بلور مقالة logic and conversatio ما تعرف بنظرية المحادثة أوضح من خلالها أن تأويل ملفوظ ما يعتمد على عاملين، معنى الجملة المتلفظ بها من جهة، وسياق التلفظ من جهة وإلى هاذين العاملين أضاف غرايس ما سماه مبدأ التعاون»[12] لقد ركز غرايس في نظريته على الجملة من حيث المعنى والسياق، إذ لا يمكن فصل إحداهما على الآخر وقد أضيف إلى هاذين العاملين السابقين مبدأ التعاون.

كان هناك انتقال معرفي براغماتي في الآن نفسه، وقد تمثل في الثورة الإدراكية والعلوم المعرفية، وقد أشارت إلى هذه المرحلة الباحثة رانية قدري، في مقالها الموسوم ب "النقد المعرفي والتشكيل الإدراكي للغة" حيث أبانت عن التحول الإجرائي للغة في العلوم المعرفية وفق منطق إدراكي، فكانت هذه المرحلة مهمة« في تاريخ التداولية حيث تزامنت في انفتاحها مع العلوم المعرفية والأبحاث المتعلقة بالذكاء الاصطناعي، وهي أبحاث غيرت الوجه العام للتداولية و أعلنت ما يعرف بالتداولية المعرفية مع نظرية الملاءمة لسبيربر وولسن»[13].

كانت هذه أهم المحطات التاريخية التي أسست للمنهج التداولي، إضافة إلى ديكرو الذي أضفى بعدا دلاليا من خلال محاولته لتأسيس تداولية مندمجة في الدلالة ضمن ما يعرف بنظرية الحجاج.

رابعا/ المنهج التداولي مرجعياته الفلسفية:

إن العلوم بصفة عامة هي امتدادات معرفية لم تأت من فراغ، بل كانت نتيجة إرهاصات وخلفيات سابقة مثلت الأرضية الخصبة الأولى التي مهدت الطريق من أجل الظهور، تقول الباحثة "رانية قدري" في مقالها الموسوم "بالنقد المعرفي وتجاوز إشكالية الموت في النقد المعاصر" «إن المعارف لا تأتي من فراغ، وكل معرفة تعد عنصرا شارحا أو ناقدا أو مفسرا لما قبلها، والساحة النقدية بنيت على هذه التبعات المتوالية»[14] و هذا حال الدرس التداولي فقد كان لهذا الأخير مصادر متنوعة انبثق منها، ولكل مفهوم من مفاهيمه حقل معرفي اتكأ

عليه، فالأفعال الكلامية على سبيل المثال انبثقت من مناخ الفلسفة التحليلية، ومفهوم نظرية المحادثة انبثقت من فلسفة بول غرايس، ونظرية الملاءمة التي ولدت من رحم علم النفس المعرفي وهكذا.

1/الفلسفة التحليلية:

إن الفلسفة التحليلية هي الينبوع المعرفي الأول للمفهوم التداولي وهو الأفعال الكلامية، فقد بات ضروريا التعريف بهذا التيار الفلسفي لأنه يجسد الخلفية المعرفية والمحضن الفكري لنشوء هذه الظاهرة اللغوية، ولحظة انبثاق ظاهرة الأفعال الكلامية وولادة التيار التداولي في البحث اللغوي، لأن الفلسفة التحليلية هي السبب في نشوء اللسانيات التداولية –حيث «نشأت الفلسفة التحليلية بمفهومها العلمي الصارم في العقد الثاني من القرن العشرين في فينا بالنمسا على يد الفيلسوف الألماني غوتلوب فريجهgottolob ferge (1848-1925)في كتابه أسس علم الحساب، وكانت دروسه في الجامعة الألمانية موردا لطلاب الفلسفة والمنطق من مختلف الأصقاع الأوروبية لاسيما ألمانيا و النمسا، على الرغم من قلة إنتاجه المكتوب»[15] كما أن الفيلسوف النمساوي لودفيغ فيتغنشتاين Wittgenstein «اقتفى أثر فرجيه فانتقد مبادئ الوضعانية المنطقية وأسس اتجاها فلسفيا جديدا سماه فلسفة اللغة العادية، قوامها الحديث عن طبيعة اللغة وطبيعة المعنى في كلام الرجل (الإنسان العادي)أهم ما يميز فلسفة فيتغنشتاين التحليلية بحثه في المعنى و ذهابه إلى أن المعنى ليس ثابتا و لا محددا، ودعوته إلى تفادي البحث في المعنى المنطقي الصارم"[16]وجهة كل من فرجيه و فيتغنشتاين وجهة فلسفية واحدة، فيتغنشتاين في فلسفته ركز على المعنى حيث ذهب إلى أن المعنى متغير قابل للتحوير و يرفض الثابت.

في هذا المقام «نجد عددا من الفلاسفة الآخرين قد تأثروا بالتجديد الفلسفي منهم: هوسرل Husserl كارناب Carnap؛ فيتغنشتاين Wittgenstein ؛ وأوستين Austin وسيرل Searle تجمع بين هؤلاء الفلاسفة مسلمة عامة مشتركة، مفادها أن فهم الإنسان لذاته ولعالمه يرتكز في المقام الأول على اللغة، فهي التي تعبر عن هذا الفهم»[17] ذلك أن اللغة هي العنصر الأساسي و الأول لعملية الفهم.

ويمكن أن نجمل مفهوم الفلسفة التحليلية في جملة من المتطلبات والاهتمامات الثلاثة:

-«ضرورة التخلي عن أسلوب البحث الفلسفي القديم، وخصوصا جانبه الميتافيزيقي.

-تغيير بؤرة الاهتمام الفلسفي من موضوع "نظرية المعرفة" إلى موضوع "التحليل اللغوي".

-تجديد وتعميق بعض المباحث اللغوية، ولاسيما مبحث "الدلالة" والظواهر اللغوية المتفرعة عنه»[18]

إن الفلسفة التحليلية سعت إلى الانفتاح على الجانب اللغوي والدلالي وتخلت عن الأسلوب البحثي الفلسفي القديم، كما أن هذه الأخيرة قد انقسمت إلى ثلاثة فروع أو اتجاهات كبرى هي: الوضعانية المنطقية: positivisme logiqueبزعامة رودولف كارناب؛ الظاهراتية اللغوية phénoménologie du langage بزعامة "ادموند هوسرل"؛ وفلسفة اللغة العادية philosophie du langage ordinaire بزعامة فيتغنشتاين. هذا الفرع الأخير

هو الذي نشأت بين أحضانه ظاهرة الأفعال الكلامية، إلا أن هذه التيارات الثلاثة ليست كلها ذات منهج وظيفي تداولي في دراسة اللغة، التيار الأول والثاني خرج عن التداولية بسبب اهتمام التيار الأول باللغات الصورية المصطنعة و اتخاذها بديلا عن اللغات الطبيعية، والتيار الثاني يؤخذ عنه أنه انغمس في البحث في أطر فكرية أعم من الكينونة اللغوية، إذ راحت تتساءل عن قطب "الأساس" وهو بداية الحدث اللساني في أعماق الوجدان، وهو الذي يسميه سوسير"المرحلة السديمية»[19]وهي مرحلة ذهنية قبل وجودية فهي في غاية التجريد ولا علاقة لها بالاستعمال اللغوي ولا بأغراض المتكلمين، ومن ثم فهو اتجاه غير تداولي.

تعددت واختلفت اتجاهات الفلسفة التحليلية، ولم تنصب جل اهتمامات الفلاسفة على البعد التداولي اللغوي، فقد كان لكل فرع بعض المأخذ كما هو موضح أعلاه وقد «جاءت الفلسفة الظاهراتية بمبدأ القصدية intentionnalite، الذي استثمره الفيلسوف أوستين في دراسة ظاهرة الأفعال الكلامية، وقام تلميذه سيرل بنفس الصيغ حينما اتخذه معيارا أساسيا لتصنيف القوى المتضمنة في القول»[20] لقد جاءت الظاهراتية بمبدأ إجرائي جد مفيد في اللسانيات التداولية وهو القصدية.

لم يبق ضمن الاهتمامات التداولية من تلك التيارات الثلاثة إلا تيار واحد هو تيار فلسفة اللغة العادية الذي أسسه الفيلسوف "لودفيغ فيتغنشتاين"، والمادة الأساسية للفلسفة عنده هي اللغة «فكان يرى أن جميع مشكلات الفلسفة تحل باللغة فاللغة هي المفتاح السحري الذي يفتح مغاليق الفلسفة»[21]، إن اللغة هي الأساس لحل جميع مشاكل الفلسفة فهي مادتها الأساسية من منظور فيتغنشتاين، ولم يلق تراث هذا الأخير مكانة إلا عندما تبناه أوستين في مؤلفه القول هو الفعل" وسيرل في دراسته القوى المضمنة في القول.

2/السيميائيات والتداولية:

اتخذت العلامة مع بورس بعدا أنطولوجيا ووجوديا وتمثل مداره «حول ماهية العلامة ووجودها وعلاقتها بالموجودات الأخرى، مستفيدا من الإرث الكانطي والفلسفة الظاهراتية وهو ما عبر عنه جيرار دلودال قائلا "إن ظاهرية بورس لها كأصل ظاهرية كانط وليس كظاهرية هوسرل ولكي يعطيها بورس تمييزا عن ظاهرية كانط و(هيغل)، فقد أعطاه اسم الفانيروسكوب وفهمها وعرفها في حدود واقعيته دون استنتاج سيكولوجي، غير أن هذا القول لايعبر عن مشروع بورس في شموليته، على اعتبار أن البعد الأنطولوجي لا يمكن فصله عن أخر ذو طبيعة تداولية يهتم بفاعلية العلامة ووظيفتها في الحياة البشرية و يظهر هذا المنحى التداولي جليا عندما نتأمل سيرورة التدليل»[22].

إن العلامة من منظور بورس لا تنتج دلالة مكتفية بذاتها، بل إنها تولد صيرورة تدليلية متطورة، وقد عرجنا في البداية عن جهود بورس التي كانت نقطة انطلاق بالنسبة لتلميذه بورس «فالسيرورة الدلالية تتخذ بعدا تداوليا من خلال التأويل بسياق الكلام، فعندما يتلفظ شخص ما بجملة من قبيل "الجو غائم" فإن دلالات هذه الجملة تختلف باختلاف المؤولين، فهي تعني بالنسبة للمؤول المباشر المعنى المصرح به، وتكون غاية المتكلم في هذه الحالة إفادة المخاطب حكما تتضمنه الجملة مما يجعلها ذات طابع إخباري، أما بالنسبة للمؤول الدينامي

فيستأثر باهتمامه لفظ "غائم" ويتساءل في نفسه ما الذي جعل المتكلم يتلفظ بهذه الجملة؟ أ يتوخى الإخبار أم له مقاصد أخرى؟ ربما يتوخى المتكلم الدعوة إلى المكوث في المنزل أو ربما الدعوة إلى حمل المظلة...بينما يستغل المؤول النهائي معارفه وخبراته المتعددة، ويسعى للربط بين الملفوظ وسياق التلفظ من أجل تحديد مقصد المتكلم وبالتالي الخروج من دائرة التعميم إلى دائرة التحديد حتى لا ينتهي التأويل إلى متاهة تأويلية»[23] ذلك أن دلالة جملة في الاستعمال تختلف تأويلاتها باختلاف المؤولين، التأويل النهائي هنا يؤخذ فيه بعين الاعتبار مقاصد المتكلم والمقام التواصلي وأحوال السامعين.

أما التجلي الأخر للمنحى التداولي في سيميائيات بورس فنستنتجه من خلال الإشارة إلى أن كل «موضوع أو مفهوم لا دلالة له، إلا في إطار ما يترتب عنها من أثار وأفعال، وفي هذا الصدد نشير إلى أن بورس كتب مقالتين مهمتين هما "تثبيت الاعتقاد 1877"و"منطق العلم: كيف نجعل أفكارنا واضحة 1875 "أكد من خلالهما أن غاية الفكر هي إبداع عادات فعلية، وهذه العادات مقرونة بسؤالين هما متى يتم الفعل؟ وكيف يتم الفعل؟ بالنسبة للسؤال الأول يكون مقرونا بالإدراك الإنساني، وفي الحالة الثانية يؤدي الفعل إلى نتيجة ملموسة» [24] وربما يكون هذا المنحى من ممهدات ظهور التداولية المعرفية خاصة باقترانه بالإدراك الإنساني.

3/الذرائعية والتداولية:

إن أصل الفلسفة البراغماتية يعود إلى الحركة التي نشأت في أمريكا في أواخر القرن التاسع عشر، وعرفت باسم البرغماتيزم pragmatism «و كان أول من أطلق عليها هذه التسمية هو الفيلسوف تشارلز ساندرس بيرس حينما نشر مقاله الأول سنة1978 بعنوان " كيف تجعل أفكارك واضحة" والثاني بعنوان" ماهي البراغماتية " ثم طورها بعد ذلك الفيلسوف و عالم النفس وليم جيمس من خلال كتاباته الفلسفية التي أدت دورا هاما في الفلسفة المعاصرة، بدءا بمحاضراته التصوراتية العقلية والنتائج العملية سنة 1898 الذي حاول في مختلف كتاباته أن يجعل منطلق للتفكير البرغماتي، وأن يضع له مجالا للتطبيق»[25]هذه كانت لمحة موجزة عن نشأة البراغماتية وتطورها.

لقد عمق بورس تصوره للعلاقة بين الموضوعات وأثارها من خلال بحثه الذرائعية pragmatism1905،حيث نص على أن مفهوما ما يصبح ذا معنى إذا ترتبت عنه نتائج عملية، على هذا الأساس تحدد موضوع التداولية بالنسبة لبورس في معرفة ما ينبغي فعله وكيف ننجز الفعل what to do and haw to do it إنه يجب أن تسمح بإمكان قيام فعل معين في المستقبل، وتكوين استعداد للتصرف على هذا النحو نفسه في جميع الظروف المماثلة «و من هذا المنظور يتضح جليا أن الذرائعية في تناولها لقضايا الفكر تتقاطع مع انشغالات التداولية، فالأفكار لا معنى لها إلا ضمن تجربة واقعية وبالمثل فإن الكلام لا معنى له إلا ضمن سياق كلامي محدد مشروط بجملة من الظروف»[26] نقطة التقاء الذرائعية والتداولية في أن قيمة الأفكار لا قيمة لها وهي بعيدة عن التجربة الواقعية وكذلك الكلام لا قيمة له بمعزل عن سياقه وما يحيط به.

خامسا/موضوع التداولية:

إن التداولية كغيرها من الدراسات لها موضوع محدد، فهي تختص بدراسة اللغة في دائرة الاستعمال أي دراسة المعنى كما يرغب المتكلم في إيصاله؛ ماذا يعني المخَاطب من خلال ما يقول؟ ماهي الرسالة التي يسعى لإيصالها فالتداولية pragmatics تختص بدراسة المعنى كما يوصله المتكلم أو الكاتب ويفسره المستمع أو القارئ، لذا فإنها مرتبطة بما يعنيه الناس بألفاظهم أكثر من ارتباطها بما يمكن أن تعنيه كلمات أو عبارات هذه الألفاظ منفصلة" أي أن التداولية هي دراسة المعنى الذي يقصده المتكلم»[27] فهي قصدية إبلاغيه تواصلية مقامية في الآن نفسه.

تعد التداولية حقلا يعيد النظر في المبادئ التي تتأسس عليها الأبحاث اللسانية السابقة والمتمثلة في: «أسبقية الاستعمال الوصفي والتمثيلي للغة، أسبقية النظام والبنية على الاستعمال، أسبقية القدرة على الإنجاز وأسبقية اللغة على الكلام[28].وبالتالي موضوعها أو مبدؤها الأولي هو مبدأ لساني محض.

سادسا/التداولية عند العرب:

وجدت التداولية عند العرب منذ أزل بمصطلحات مختلفة، وكانت لهم الصادرة في ذلك، فهي متجسدة في بعض المباحث العربية كمبحث علم النحو والبلاغة وعلم الأصول؛ مثلا نجد نظرية الخبر والإنشاء العربية تقابلها نظرية أفعال الكلام الحديثة، فالتداولية بمفهومها الحديث لم تكن بعيدة عن الممارسات اللغوية التراثية بل كان لها حضورا بارزا في تراثنا اللغوي العربي حيث «لم يكن العرب تابعين للغرب في مجال الدراسات التداولية، وانما كان لهم مجال الريادة والسبق فقد ذهبوا يحللون الأساليب اللغوية، وتوصلوا إلى نظرية المقامتية أو المقام لأن الكلام يختلف من شخص لأخر بل يختلف عن نفس الشخص إذا تغير حاله وحال من يتلقى منه الكلام، لقد استخدم اللغويون العرب مصطلحي الحال ومقتضى الحال وعرفوا البلاغة بأنها مطابقة الكلام لمقتضي الحال مع فصاحته»[29] .

إن مصطلح التداولية عرفه العرب منذ أمد، ولكن بمصطلحات مختلفة، لقد مارسوا التداولية في جل دراستهم كما نجد في التراث العربي إشارة واضحة إلى ما يعرف اليوم بأفعال الكلام و ذلك من نظرية الخبر و الانشاء و من النحات الذين تعرضوا لها «أبو بشر عمرو بن قنبر المعروف بسيبويه في القرن الثاني هجري، وعبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري، وأبو يعقوب السكاكي وغيرهم اضافة إلى بعض الفلاسفة والمناطقة الذين بحثوا في الاعتبارات المنطقية المتصلة بالمركبات التامة وتمييز الخبرية منها من غير الخبرية من أمثال أبي نصر الفرابي في القرن الرابع هجري ونجم الدين الكاتبي القزويني،وابن علي بن سينا في القرن الخامس هجري وغيرهم»[30] .

أما من حيث وضع مصطلح التداولية عند العرب كمقابل أو ترجمة لمصطلح البرجماتية هو الفيلسوف اللغوي طه عبد الرحمن، وأوجز تعريف للتداولية و أقربه إلى القبول إذ يقول هي «دراسة اللغة في الاستعمال أو في النصوص ،لأنه يستثير إلى أن المعنى ليس شيئا متأصلا في الكلمات وحدها ولا يرتبط بالمتكلم وحده، ولا السامع وحده، فصناعة المعنى تتمثل في تداول اللغة بين المتكلم و المخاطب في سياق محدد مادي، اجتماعي،

لغوي، وصولا إلى المعنى الكامن في كلام ما»[31] لقد كانت التداولية موجودة في متون العرب منذ أمد طويل تناولوها تنظيرا و تطبيقا في جل دراستهم، وكانت لهم دراسات تستحق التنويه في صرح البحث التداولي وأول من ترجمها إلى التداولية أو التداوليات هو الفيلسوف طه عبد الرحمن سنة1970.

سابعا/التداولية المعرفية:

حققت التداولية أبعادا تواصلية، ومعرفة عميقة بين الأشياء والظواهر والأفكار والوقائع، ومارست فعلها في الكشف عن الجانب الإنساني، أي بمجمل العلاقات التي تحدث بين الإنسان ونظيره، أو بين الإنسان والعالم الخارجي وما يحيط به.

وبما أن عملية البحث التي مارستها التداولية كانت موجهة للعالم الخارجي في علاقته بالسلوك البشري، فإن الجانب البراغماتي سيختلف طبقا لطبيعة الهدف الذي تسعى إليه، فكانت اللغة بشموليتها وبأنساقها جسرا يربط الإثنين (العالم، الإنسان) أثناء البحث.

إن القفزة المعرفية التي حظيت بها التداولية، جعلها تنتفل من الجانب الأدبي إلى الجانب المعرفي، أي من الجانب التواصلي الذي يحقق الجمالية في النص الأدبي إلى البعد التواصلي الذي يبحث عن الحقيقة المعرفية، وما بين الجمالية والمعرفية هناك هوة فارقة في الممارسة النصية، فاللغة هنا ستعمل على وفق منطق الذهن، أي كيف يشتغل العقل للكشف عما يفكر فيه الآخر، فما هي التداولية المعرفية؟

يعرف المنهج التداولي المعرفي بأنه عبارة عن تداخل متكامل ومنسجم، بين مجموعة من المناهج والنظريات، أبرزها العلم المعرفي (الذي انبثقت منه التداوليات المعرفية) واللسانيات المعرفية، وهذا المنهج عبارة عن توظيف مجموعة من «آليات ومفاهيم وطرائق العلوم النظرية العلمية كالمنطق والمعلوماتية والعلوم الاجتماعية أو الإنسانية كالفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم السياسة وغيرها. وهذا التعدد المنهجي للتداوليات المعرفية يجد له منطلقا منهجيا فيما ذهب إليه المفكر الفرنسي إدغار موران حيث تعمل التداوليات التي هي (أشكال الفعل والحياة أو هي معرفة كل ما يفكر فيه الآخر) على تحليل هذا الفكر مع ضمان النظام والدقة والوضوح في المعرفة واستبعاد كل النتائج المبتورة ذات البعد الواحد، إن الاشتغال وفق هذا المنهج المتعدد، هو استثمار لبعض المناهج المتخصصة وإعمال لنتائجها في المحاور والإشكالات التي اقتضتها الإجراءات المنهجية»[32]

فالتداولية وفق هذا المفهوم يعمل منهجها على مبدأ التعدد والشمولية، فهي انفتاح على الممكنات المعرفية وتواصل مع المناهج واستثمار لجل المعطيات التي تمنحها تلك الخطابات لرسم صورة ومبدأ مغاير يعمل على وفقه الفكر أثناء تحليل المعرفة.

تعمل التداولية المعرفية على دراسة اللغة في علاقتها بمستعمليها وفق نظام معرفي مختص في معالجة المعلومة في الذهن البشري على عدة مستويات كالتأويل والتجميع الذي يقابله مبدأ الاستثمار ثم الإنتاج الذي يفعله العقل، وقد كانت نظرية الملاءمة مع "سبربر" و"ولسون "أهم ما يميز هذه المرحلة.

تعد نظرية الملاءمة الأكثر تمثيلا للتداولية المعرفية، والتي تتمركز حول مفهوم المردودية أو الإنتاجية. ذلك أن الذهن البشري وفق تصور "ولسن "و"سبرير" يسعى إلى تحقيق الملاءمة بين مقاصد المتكلم والنتائج السياقية التي يحققها المخطاب، وبالتالي فإن نظرية الملاءمة نظرية «تداولية معرفية وهي تنتمي للعلوم المعرفية الإدراكية جمعت بين نزعتين متنافرتين، إذ نقوم بتفسير الملفوظات وظواهرها البنيوية في الطبقات المقامية المختلفة، وفي الوقت نفسه نظرية إدراكية استطاعت الدمج بين مشروعين معرفيين، الأول من حقل فلسفة اللغة والنظرية الحوارية "لبول غرايس" والثاني من حقل علم النفس المعرفي»[33]، وبهذا يتبين أن نظرية الملاءمة والتي تعتبر نظرية حديثة في مجال التداولية أضافت عنصرا معرفيا جيدا وهو ملاءمة قصد المتكلم والنتائج السياقية مع المخاطب وهذا بدوره يتطلب جهدا معرفيا يحقق ميزته إذا كان مطابقا للحقيقة، ومن جهة أخرى فإن علم النفس المعرفي سوف يمنح للذات إمكانياتها مع التداولية.

خاتمة:

-تسعى التداولية لدراسة كيفية استعمال اللغة.

-التداولية تتجاذبها مجموعة من المجالات وبالتالي من الصعوبة بمكان أن تجد لها مصطلحا موحدا أو تعريفا موحدا.

- ارتكزت التداولية على عدة جذور كان لها الفضل في نشأتها، وأهم جذر فاعل في هذا الشأن هو الفلسفة التحليلية.

-تفرعت منابع التداولية إلى ثلاث: علم فلسفي منطقي، وعلم مرتبط بفلسفة اللغة الطبيعية أي أفعال الكلام مع أوستين وسيرل، ومنبع لساني بحتٌ أسس له بنفينيست من خلال لسانيات التلفظ وديكرو مع التداولية المدمجة.

-بالعودة إلى تراثنا العربي نجد أن للتداولية حضورا قويا يظهر من خلال ثنائية الخبر والإنشاء.

-حققت التداولية قفزة جديدة نقلتها من الخطاب الأدبي إلى الخطاب المعرفي.

-تميزت التداولية المعرفية عن التداولية بعنصر قيمة المعرفة التي مصدرها العقل، حيث يعمل هذا الأخير على تفعيل مبدأ المطابقة بين المتكلم والسياق والمخاطب وفق عملية إنتاجية نحققها نظرية الملاءمة.

هوامش وإحالات المقال

[1]-فرنسواز أرمينكو: المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنهاء القومي،د.ط، د.ت ص02.

[2]-فيليب بلانشيه: التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشه، دار الحوار للنشر والتوزيع،سورية،الطبعة1، 2007،ص19.

[3]-بهاء الدين محمد مزيد: تبسيط التداولية من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي، شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة1، 2010، ص18.

[4]-محمود عكاشة: النظرية البراغماتية اللسانية(التداولية)دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2013، ص13.

[5]-محمد محمد يونس علي: مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة 1، 2004 ص11.

[6]-محمد عكاشة: النظرية البراغماتية اللسانية(التداولية)دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ مرجع سابق، ص13.

[7]-المرجع نفسه،ص13.

[8]-بن عيسى عبد الحليم: مصطلح التداولية في الدراسات العربية المعاصرة بين التلقي و التأسيس قراءة تحليلية نقدية، جامعة أحمد بن بله، وهران، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية و الإنسانية، العدد20، 2018،ص07-08.

[9]-جواد ختام: التداولية أصولها واتجاهاتها، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة 1، 2016، ص20.

[10]-المرجع نفسه،ص 20.

[11]-جواد ختام : التداولية أصولها و اتجاهاتها، مرجع سابق،ص 20.

[12]-المرجع نفسه، ص 21.

[13]-المرجع نفسه، ص 21.

[14].رانية قدري محمد عروس: النقد المعرفي وتجاوز إشكالية الموت في النقد المعاصر، مجلة المدونة، المجلد8/العدد1مارس2021،ص486

[15]-مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة"الأفعال الكلامية"في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت، د.ط، ص18.

[16]-مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة "أفعال الكلام"في التراث اللساني العربي، مرجع سابق،ص 20.

[17]-المرجع نفسه،ص21.

[18]-المرجع نفسه، ص 21-22.

[19]-مسعود صحراوي : التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة"أفعال الكلام"في التراث اللساني العربي،ص22-23.

[20]-المرجع نفسه، ص 23.

[21]-المرجع نفسه، ص23.

[22]-جواد ختام: التداولية أصولها واتجاهاتها، مرجع سابق، ص47-48.

[23]-المرجع نفسه، ص48-49.

[24]-المرجع نفسه،ص49.

[25]-دلال وشن: الفلسفة والسيميائية مصدران للتداولية، جامعة ميلة، ص59.

[26]-جواد ختام: التداولية أصولها و اتجاهاتها، مرجع سابق،ص 50.

[27]-جورج يول : التداولية، ترجمة قصي العتابي، الدار العربية للعلوم ناشرون، الرباط، الطبعة 1، 2010،ص 19.

[28]-فطومة لحمادي: تداولية الخطاب المسرحي"مسرحية عصفور من الشرق"لتوفيق الحكيم-أنموذجا-الحياة الثقافية، العدد188 ،2007، ص79.

[29]-محمد السيد أبو حسن: الدرس التداولي في ضوء علم اللغة الحديث، مكتبة دار الفكر العربي، القاهرة،2010، ص09.

[30]-مجيد الماشطة: مسرد التداولية، دار الرضوان للنشر والتوزيع، عمان، ط1،2018، ص22.

[31]-أحمد فهد صالح شاهين : النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة، عالم الكتب الحديث للنشر و التوزيع،اربد،ط1 ،2015،ص10

[32]- عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية لآليات التواصل والحجاج، إفريقيا الشرق الدار البيضاء، المغرب، د،ط،2006،ص16.15

[33]-ختام جواد: التداولية أصولها واتجاهاتها، ص 73

قائمة المراجع:

1- فرنسواز أرمينكو: المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش مركز الإنماء القومي، د.ط، د.ت.

2-فيليب بلانشيه: التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشه، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية،الطبعة1، 2007.

3-بهاء الدين محمد مزيد: تبسيط التداولية من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي، شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة1، 2010.

4-محمود عكاشة: النظرية البراغماتية اللسانية(التداولية)دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2013.

5-محمد يونس علي: مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة 1، 2004.

6-بن عيسى عبد الحليم: مصطلح التداولية في الدراسات العربية المعاصرة بين التلقي و التأسيس قراءة تحليلية نقدية، جامعة أحمد بن بله، وهران، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية و الإنسانية، العدد20، 2018.

7-جواد ختام: التداولية أصولها واتجاهاتها، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة 1، 2016.

8-رانية قدري محمد عروس: النقد المعرفي وتجاوز إشكالية الموت في النقد المعاصر، مجلة المدونة، المجلد8/العدد1مارس2021.

9-مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة"الأفعال الكلامية"في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت، د.ط.

10-دلال وشن: الفلسفة والسيميائية مصدران للتداولية، مجلة علوم اللغة وآدابها، المجلد7/العدد7 جوان 2015.

11-جورج يول : التداولية، ترجمة قصي العتابي، الدار العربية للعلوم ناشرون، الرباط، الطبعة 1، 2010.

12-فطومة لحمادي: تداولية الخطاب المسرحي"مسرحية عصفور من الشرق"لتوفيق الحكيم-أنموذجا-الحياة الثقافية، العدد188 ،2007.

13-محمد السيد أبو حسن: الدرس التداولي في ضوء علم اللغة الحديث، مكتبة دار الفكر العربي، القاهرة،2010.

14-مجيد الماشطة: مسرد التداولية، دار الرضوان للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2018.

15-أحمد فهد صالح شاهين: النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة، عالم الكتب الحديث للنشر و التوزيع،اربد،ط1 ،2015.

16-عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية لآليات التواصل والحجاج، إفريقيا الشرق الدار البيضاء، المغرب،د،ط،2006،.